العنـــــاية الالهية

للكاتب الفرنسي « لوميه »

للأستاذ زكريا إبراهيم

« ... إلى الآنسة المهذبة (ا . م) : يا فتاتي : إن العناية الالهية ترعانا ، فدعيني أضع بين يديك هـذه القطعة الجميلة الرائعة التي تعبر — في بساطة مقدسة — عن تلك العناية الالهية الفائقة ... »

ز . ا

كانا جارَين ، يعيش كل منهما مع زوجه وأبنائه الصغار ، ولا همَّ له سوى توفير أسباب الحياة لأسرته .

وذات يوم ، طافت برأس أحدهما خواطر مزعجة ، فقلقتْ نفسه ، واضطرب باله ، وأخذ يفكر في نفسه قائلا : « ماذا يكون من أمر زوجي وأبنائي ، لو عَدَا عليَّ عادي الموت أو المرض ؟ » .

وألحَّت عليه هذه الفكرة ، فلم يجد للخلاص منها سبيلا . وهكذا أخذت الخواطر المزعجة تأكل قلبه ، كما تأكل الدودةُ الثمرةَ التي تختبىء فيها .

أما الآخر ، فقد طافت بذهنه هذه الفكرةُ نفسها ، ولكنه لم يتوقف عندها ، ولم يعرْها أدنى اهتمام ، بل قال في نفسه : « إن الله يعرف كل خلائقه ، وهو يعتني بها جميعاً ، فلابدَّ أنه سيعتني بي ، أنا وزوجي وأبنائي » .

وهكذا عاش مطمئناً هانئاً ؛ بينما رفيقه في حيرة وقلق واضطراب ، ولم يستطع — لحظة واحدة — أن يستمتع بالراحة والهدوء .

وذات يوم ، كان صاحبنا يعمل في حقله ، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الحزن والكآبة ، من فَرْط ما به من قلق وهَمّ ، فرأى بعض العصافير ، وهي تدخل إلى إحدى الشجيرات ، ثم تخرج منها ، ثم لا تلبث بعد قليل أن تعود إليها .

وحينما اقترب من تلك الشجيرة ، رأى عشَّين متجاورين ، في كل منهما عصافير صغيرة ، لم ينبت لها الريش بعد !

وعاد الرجل بعد ذلك إلى عمله ، ولكنه رفع بصره من وقت إلى آخر ، وينظر إلى تلك العصافير التي تروح وتجيء حاملةً القوت إلى صغارها :

وذات مرّة ، كانت إحدى الأمهات عائدة إلى عشها ومعها القوت الذي جلبته لصغارها ، فانقضّ عليها نسر كاسر ، ومضى بها ، وهي تتلوّى في قبضته ، وترسل الصرخات الأليمة المدوية !

وحينما وقعت عينا الرجل على هذا المنظر ، لجَّتْ عليه خواطر السوء أكثر من ذي قبل ، فزاد قلقه واضطرابه ، وأخذ يفكر في نفسه قائلا : « إن في موت الأم موتاً للأبناء ، فماذا عسى أن يفعل أبنائي ، لو قُدِّرَ لي أن أموت ، وما لهم من معين سواي ؟ » .

وظل الرجل طوال اليوم حزيناً كاسف البال ، وبات طيلة ليلته ساهداً لم تكتحل عيناه بنوم .

وفي اليوم التالي ، حينما عاد إلى عمله في الحقل ، فكّر في نفسه قائلاً : « تُرَى ما الذي صار من أمر الصغار الذين خلّفتهم تلك الأمّ المسكينة ، لابدّ أن يكون عدد كبير منهم قد مات جوعاً » ومضى الرجل إلى الشجيرة ، لكي يرى بعينيه ما حدث

وألقى الرجل نظرة على الشجيرة ، فراعه أن الصغار جميعاً في أحسن حال ، ليس بينهم من يبدو ضعيفاً أو خائراً أو موشكا على الموت»

ولما كانت الدهشة قد بلغت به كل مبلغ ، فقد اختبأ ليرى بنفسه ما الذي سيحدث .

وبعد لحظات ، سمع الرجل صرخة خفيفة ، ولمح صاحبة العش الآخر ، وقد أسرعت تحمل القوت لصغارها ، وصغار رفيقتها التي اقتنصها النسر . ورأى صاحبنا هذه الأمّ الرحيمة وهي توزع القوت على الصغار جميعا بلا تفرقة ولا تمييز ، فيصيب كل منهم طعامه ، ولا يُترك واحدٌ منهم يتيماً لا عائل له !

وفي المساء ، مضى الرجل إلى جاره المؤمن ، يروي له ما رآه بعيني رأسه .

وعند ذلك قال له رفيقه : « فِيمَ القلق والاضطراب إذن ؟ إنَّ الله لا يتخلَّى عن عباده أبداً ؛ وهذه محبّته لها أسرارٌ لا سبيل لنا إلى معرفتها . فحسبنا أن نؤمن ، ونأمل ، ونحبّ ، ولنواصل السير في طمأنينة وسلام .

« وإذا قدّر لي أن أموت قبلك ، فإنك تصير أباً لأبنائي ، وإذا قدّر لك أن تموت قبلي ، فإنني أصير أباً لأبنائك .

« أما إذا قُدّر لنا نحن الاثنين أن نموت قبل أن يصبح أبناؤنا رجالاً ، فسيكون أبوهم عندئذ ذلك الأب الذي في السماء ! »

زكريا إبراهيم
مدرس بمدرسة السويس الثانوية